ANKARA ÜNİVERSİTESİ

LÂHİYAT FAKÜLTESİ DERGİSİ

ANKARA ÜNİVERSİTESİ İLÂHİYAT FAKÜLTESİ
TARAFINDAN YILDA BİR ÇIKARILIR

Cilt: XXXII

32 / 1992

Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Araştırmaları Merkezi

I. GOLDZIHER'İN HADİSLE İLGİLİ BAZI GÖRÜŞLERİNİN TAHLİL VE TENKİDİ

Yazan: Prof. Dr. Talât KOÇYİĞİT
Arapça'ya çeviren: Ar. Gör. Ahmet Nedim SERİNSU

نقد و تحليل بعض آراء اغناز غولدتسيهر
المتعلقة بالأحاديث النبوية

كتبه : الأستاذ الدكتور طلعت قوج بكيت (رئيس قسم الحديث)
نقله الى العربية : أحمد نديم سرينصو (معيد في قسم التفسير)

نود أن نطلع في مقالتنا هذه على أفكار المستشرق الشهير اغناز غولدتسيهر (IGLAZ GOLDZIHER) في الحديث النبوي الشريف . و قد اشتهر هذا المستشرق ببحوثه ودراساته في العلوم الإسلامية ، و ألف كتابا بعنوان " الدراسات الإسلامية " Muhammedanische Studien (١) وقد جمع في المجلد الثاني منه آراءه المتعلقة بالحديث النبوي الشريف . و هذا الجزء قد نقل أخيرا إلى الفرنسية على يد ليون برشر (Léon Bercher) تحت عنوان : " Etudes sur la tradition Islamique " (٢) .

قبل أن نبدأ في تحليل آراء غولد تسيهر في الحديث علينا أن نعرف بأنه لقب بشيخ المستشرقين ، وأنه مجرى من أصل يهودي ، وله مؤلفات ذات مكانة عالية في الأوساط الغربية و خاصة لدى المستشرقين حيث يعتمدون عليها و يرجعون إليها و يستدلون بها في بحوثهم و دراساتهم و يأتون منها بالأدلة على آرائهم . و إذا كان هذا هو الواقع فمن الضروري جدا أن يعرف الباحث المسلم أفكار غولدتسيهر ومغزاها . فانطلاقا من هذا المبدأ سنحاول أن نحلل و ننتقد بعض أفكاره في كتابه المذكور .

و من المعروف أن المستشرقين فيهم منصفون ، و فيهم أيضا من يهاجم الإسلام و المسلمين بالفكرة الصليبية دون حذر و احتراس من تبديل و تحريف الحقائق التاريخية

١ـ Halle ، ١٨٩٠م .
٢ـ Paris ، ١٩٥١م .

في سبيل افساد و تضليل المسلمين . وأما غولدتسيهر الملقب بشيخ المستشرقين فيعتبر من الفريق الثاني . وما مشيخته عندي إلا مهارته من تحريف الحقائق الإسلامية مستدلا و مستندا ببعض الأدلة . فهو يتجاهل بعض الأحاديث التي حكم عليها أئمة الحديث بأنها موضوعة ، ثم يبحث عن مدى صلتها بالأسس و المبادئ الإسلامية ، وبعد ذلك يقوم بإثبات موضوعية تلك الأحاديث بغية إختلاق الشبهات و غرس الشكوك حول أصول الدين الإسلامي . وفي مستهل كتابه المترجم إلى اللغة الفرنسية اتهم أصحاب النبي إثر وفاته بوضع أحاديث كثيرة في تعاليم الدين توافق عقلية الرسول الكريم دون أية حيثية في هذه العملية . (٣)

و في زعم غولدتسيهر أن أغلب الأحاديث ظهرت خلال القرنين الأولين نتيجة تطور الإسلام تطورا اجتماعيا و تاريخيا . و من هذا المنطلق تبدو الأحاديث على أنها لا علاقة لها بظهور الإسلام ، بل ما هي إلا عبارة عن وثائق في تطور هذا الدين في العصور المتعاقبة (٤). و بتعبير آخر أن الأحاديث عبارة عن مجموعة أدلة حول تنظيم الدين الإسلامي عقيدة و عبادة في العصور التالية . و في رأي غولدتسيهر يعني هذا أنه لم تكن هناك أحاديث قبل القرنين الأولين ، وبالتالي إذا لم تكن هناك أحاديث فليس هناك بعض الأقسام المهمة للإسلام من العقيدة و العبادة المبنية على الأحاديث النبوية . فمنشأ ما وضعت الأحاديث الكافية لإكمال الدين تمكنوا من تثبيته و تنظيمه (٥) .

٣ـ ترجمة برشر ، ص ٥ .
٤ـ ترجمة برشر ، ص ٦ .
٥ـ ترجمة برشر ، ص ٦ .

ان غولدتسيهر بادعائه هذه لا يعترف ببلوغ الإسلام الى الكمال في أواخر أيام النبي ، و لا يقر باتمام أحكام عقائده و عباداته مع سائر أحكامه ككل ، و يتغافل أيضا قوله تعالى : " اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتي و رضيت لكم الإسلام دينا " (سورة المائدة ، ٣) . و هناك آيات أخرى يغض عنها النظر إذا كان يجد في تجاهلـــه

230

.....

فائدة تؤيد وجهة نظره . وفي هذه الآيات أمر النبي بتبليغ و تبيين الأحكام المرسلة إليه للمسلمين ، هذا من جهة و من جهة أخرى أمر المسلمون بطاعته عليه السلام و بأخذ ما آتاه و الانتهاء عما نهى عنه . و لا شك أن أوامر القرآن قد لبقت من قبل المسلمين الأوائل . و خير دليل على ذلك أن العرب في الجاهلية كانوا يخرجون من ديارهم و ممتلكاتهم لأجل الذهب و السلب فقط ، و لما جاء الإسلام اكتسبوا في وقت قصير روح الجهاد الذي أحتفم إلى فتح العالم . وما تلك القوة الناشئة من هذه الروح إلا نتيجة لهذا الإيمان الذي جاء به الإسلام . و بفضل إيمانهم بالنبي الكريم و اقتدائهم به و اتباعهم لأوامره ، و في غضون نصف قرن أسسوا الدولة الإسلامية الأولى ، و بدفس الإيمان أيضا حافظوا على أحاديث النبي حفاظا جيدا أثناء حياته . وإن كان قد وضع بعضها فيما بعد فإن أئمة الحديث قاموا بتصفيتها و غربلتها لذا فإن الأحاديث الموضوعة لم تلعب أي دور يذكر في تثبيت و تنظيم الدين كما يدعيه غولدتسيهر .

هكذا تحتوى الصفحات الأولى من كتابه على هذه الآراء في الأحاديث . و لا يخفى على المنصفين أنه يرمي إلى قصد معين في أفكاره التي يستهدف من خلالها افساد الدين و التشكيك فيه . و مع هذا فسنطلع على أدلته التي يستدل بها لكي لا نحكم عليه قبل تحليلها و نقدها .

بعد ما بنى غولدتسيهر رأيه العام حول الأحاديث النبوية في بداية كتابه أخذ يبحث عن الأسس التي يبني عليها هذا الرأى . و لهذا الغرض نجده يتكلم عن الحكم الأموي الذى جاء بعد الخلفاء الراشدين مدعيا بأن الحكام الأمويين أعلنوا عداوتهم صراحة للدين و السنة ، و بالتالي ظهرت الخصومة و العداوة بين العلماء و الحكام . و أصبح هذا الإدعاء أساسا لآراء غولدتسيهر المتعلقة بوضع الحديث ، فبنى على هذا الأساس ما يلي : " في أن قبل العهد الأموي لم يشترع حقل الحديث من قبل العلماء المعارضين للحكومة فحسب بل الحكام أيضا وضعوا الأحاديث لتقوية آرائهم و لتشكيك المخالفين لهم و تقليل شأنهم في المجتمع . و بناء على هذا يرى غولدتسيهر أن وضع الأحاديث و نشرها من قبل السلطة قد بدأ في وقت مبكر (٦) .

وقد أيد غولدتسيهر رأيه هذا بذكر رواية من الطبري جاء فيها :

" إن معاوية بن أبي سفيان لما ولى المغيرة بن شعبة الكوفة في جمادى سنة احدى و أربعين دعاه ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فان لذى الحلم قبل اليوم ما تُفْرَع العصا ... و لستُ تاركا إيصاءك بخصلة : لا تتعرّض عن شتم علي و ذمه ، و الترحم على عثمان و الإستغفار له ، و العيب على أصحاب علي ، و الإقصاء لهم ، و ترك الإستماع منهم ، و باطراء شيعة عثمان رضوان الله عليه ، و الإدناء لهم ، و الإستماع منهم .(٧)

٦ـ ترجمة برشر ، ص ٤٣٠ .

٧ـ تاريخ الطبرى ، ١١٢/٢ (٢٥٣/٥). أنظر : ترجمة برشر ، ص ٤٣٠ .

إن غولدتسيهر بعد نقله هذا الخبر ادعى بأن الخلفاء الأمويين حثوا على وضع الأحاديث بل أمروا به من قبل الجهات الرسمية . و دليله على رأيه من عنده : وهو قول معاوية سالف الذكر ، لأنه قد فسر و فهم قول معاوية بهذا المعنى : " لا تحترز من وضع الأحاديث لعثمان و على علي " . ويقول أيضا بعد نقله الخبر : " إنه هنا أمر رسمي يحث على وضع و نشر الأحاديث على علي ، كما أنه يحث على إزالة الأحاديث الواردة لعلي . و لم يكن الأمويون و أنصارهم يحثون و يتورعون من هذه الأكاذيب و نشرها مطلبة بحو من التقديس ، و كانت المشكلة عبارة عن نشر الأكاذيب بواسطة رجال أتقياء لا يُتَّهَمُ لأسمائهم أية تهمة . و ما أكثرهم في كل عصر " . (٨)

و الآن تترك تفسير أقوال غولدتسيهر و فهمه فنعود إلى خبر الطبري الذي أورد فيه أمر معاوية للوالي ، و هو المصدر الأصلي لغولدتسيهر ثم نتحرى و نتتبع الخبر فيه. لقد أورد الطبري الخبر ضمن أخبار سنة ٥١ الهجرية و فيه أمر معاوية لمغيرة بن شعبة في شتم علي رضوان الله عليهم و لكن مع هذا نصاب بالحيرة و الدهشة حيث لا نجد الأمر بـ " استماع الحديث من شيعة عثمان و منع أخذ الحديث من أصحاب علي " . و لكي نرى هذه النقطة بكل صراحة ، نرجع إلى خبر الطبري السابق :

" لا تتحمّ عن شتم علي وذمه، و الترحم على عثمان و الإستغفار له ، و العيب على أصحاب علي ، و الإقصاء لهم ، و ترك الإستماع منهم ؛ و بإطراء شيعة عثمان و الإدناء لهم، و الإستماع منهم . " (٩)

٨ـ ترجمة برشر ، ص. ٤٣ .

٩ـ تاريخ الطبري ، ١١٢/٢ (٢٥٣/٥) .

و اتخذ غولدتسيهر عبارتي " ترك الإستماع " ، و " الإستماع منهم " سندا و برهانا لدعم زعمه . و لكنا نجد أن الإستماع في اللغة بمعنى إصغاء و هي حسن الإستماع و يقال : أصغى اليه برأسه و بأذنه أي أمال لها يَتَسَمَّعُ وليس لها معنى اصطلاحي. و بناءً على هذا يكون المقصود من أمر معاوية هو : " لا تسمع من شيعة علي و استمع من شيعة عثمان" كما هو المفهوم مما جاء في خبر الطبري و لا يوجد فيه أي معنى لـ " استماع الحديث" أو " عدم استماعه " كما يدعيه غولدتسيهر و لا سيما وضع الحديث على عليّ و لعثمان " فانه كلام موهوم معنى و لفظا . اذاً نستطيع أن نقول - دون تردد - إن غولدتسيهر قد حرف معنى هذا الخبر " لا تصغي إليه " لغرض معين و ثبّت في نفسه .

إذاً لماذا اضطر غولدتسيهر اضطراراً إلى تحريف هذا الخبر ؟ أي غرض كان يريد من خلاله الوصول إليه بسبب تحريفه هذا الخبر ؟ و يمكن استخراج إجابة لهذه الأسئلة بسهولة من كتابه . إن غولدتسيهر بعد ما يُحَمِّل خبر الطبري معنى حسب غرضه " وضع الحديث على عليّ و ضعه لعثمان " يدعي أن وضع الحديث قد بدأ بأمر معاوية بشكل رسمي - وكما سبق ذكره - فقد بقيت المسألة في اشاعة هذه الأحاديث الموضوعة بواسطة أناس زهاد و عباد حتى لا تتعرض أسماؤهم لهجوم مضاد . ثم يحاول بعد ادعائه هذا أن يجد محدثا زاهدا تقيا يخدم آمال الأمويين و يستطيع نشر الأحاديث التي أُمِرَ بوضعها من قبلهم بين الناس . فمن يكون إذاً هذا المحدث ؟

و من هنا لا يصعب علينا أن نقرر ما يضمره غولدتسيهر عندما يبحث عن محدث يخدم آمال و أغراض الأمويين و يضع الحديث بأمرهم - كما يزعم - . و لذلك على غولدتسيهر أن يجد محدثا و قد اشتهر بين المسلمين برواية الحديث و يجمع في نفسه العدالة و الضبط و الثقة و تكون روايته مذكورة في كتب الحديث المعدودة ، و بعد ذلك الإدعاء يزعزع اعتماد وثقة المسلمين على الحديث ، و يُدخل الشكّ في قلوب المسلمين في دينهم .

245

و إن غولتسيهر لم يلبث أن يجد محدثا يتصف بالأوصاف التي يريدها : إنه الإمام المحدث المشهور محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٤ هـ) .

و لكن الزهري هو الذي لم يتهمه أحد من علماء الجرح و التعديل ، و لم يذكروا عليه غبار قبل غولدتسيهر بل مدحوه و أثنوا عليه ، كما أنه تلميذ التابعي الشهير الإمام سعيد بن المسيب ، وشيخ الإمام مالك بن أنس في علم الحديث و كذلك فإن أحاديثه مروية في كتب الحديث و على رأسها الصحيحين .

و كان الزهري أحد ستة أشخاص كان يدور عليهم علم الثقات في عصره كما قال الإمام علي بن المديني (١٠) و قال سفيان بن عيينة : " ... لم ير مثل هذا - يعني الزهري ". و عن مكحول قال : " ما أعلم أحدا أعلم بسنة ماضية من ابن شهاب " (١١)، و قال الإمام أحمد : "أحسن الناس حديثا و أجودهم اسنادا الزهري " .(١٢) وذكر النووي اتفاق أئمة الحديث على حفظه و ضبطه و عدالته . (١٣) مع أن آراء أئمة الحديث تجتمع في أن الزهري صادق و ثقة لكن شيخ المستشرقين غولدتسيهر اتهمه بالكذب و وضع الحديث باسم خلفاء الدولة الأموية و نشرها بين الناس . و ما هي الأدلة التي استدل بها لتأكيد دعواه ؟ و هل الزهري الذي مدحه علماء الحديث و شهدوا له بالصدق وضع الحديث كما يدعيه غولدتسيهر أم هي لعبة أخرى لتحقيق الآمال المفرضة في نفس غولدتسيهر كما رأينا مثاله في قصة التحريف ؟!

إن توجيه الإتهام إلى الزهري الذي روى أحاديث كثيرة و نقلتها كتب الحديث الصحيحة مثل الكتب الستة يوهم بأن غولدتسيهر يواصل نفس اللعبة . و لو كان الزهري وضع الحديث كما ادعى غولدتسيهر لاشتهر بين أئمة الحديث بأنه كذاب و وضاع ، و لذموه بدلا من المدح

١٠ـ تذكرة الحفاظ للذهبي ، ١١/١ .

١١ـ كتاب العلل لأحمد بن حنبل ، ٥٧/١ـ٥٨ ، كتاب الجرح و التعديل لابن أبي حاتم ، ١/٤ ، ٧٣ـ٧٤ .

١٢ـ البداية و النهاية لابن كثير ، ٣٤٢/١ . ١٣ ـ التقريب ، ص . ٥٩ـ٩٩ .

و الثناء عليه حيث أن علماء الجرح و التعديل لم يخافوا لومة لائم في التشهير بالكذابين بين الناس . و لم يكتفوا بالتشهير بهم فقط بل ذكروا أن من أخطأ خطأ يسيرا في رواية الحديث في ضمن الرواة الضعفاء و أخذوا أحاديثهم بالإحتياط، و رأوا ذلك كله ضروريا لسلامة الدين . و مع حرصهم هذا كله فقد مدحوا الزهري و أثنوا عليه و أخذوا حديثه دون تردد و توقف . و لم تكن صفة الكذب التي اتهمه بها غولدتسيهر معروفة بين علماء الجرح و التعديل !

و إذا كان الزهري قد وضع الأحاديث باسم الأمويين و لصالحهم حقيقة فلماذا لم يعترض أستاذه المشهور سعيد بن المسيب عليه و رضي بمواصلته دروسه ؟

و لماذا مدحه تلميذه المشهور و إمام دار السنة الإمام مالك و أخذ منه الأحاديث و نقلها في الموطأ الذي اعتبر بأنه أصح كتب الحديث ؟ و أخيرًا لماذا لم يظهر العباسيون الذين لهم عداوة شديدة للأمويين أكاذيب هذا الإمام الذي خدم آمال الأمويين ؟

بل لماذا لم يذموه في الوقت الذي احتقرت فيه علوم الحديث و عذب أئمته، و عظمت فيه علوم الفلسفة و راجت، خاصة في عهدي المأمون و المعتصم؟ فان كان قد خدم الأمويين كما يزعم غولدتسيهر ؟ فلماذا لم يعترض لذمهم ، و ان كان قد ذم فلماذا لم ينقل اسمه ، و لم يذكر بين المحدثين الذين أسيئ إليهم آنذاك ؟ فيا ترى من أين وجد غولدتسيهر الأخبار التي تذم الزهري ؟ و في أي المراجع المعتبرة ؟ و لماذا لم نطلع عليها نحن

نعم أن غولدتسيهر استنادا إلى بعض الأخبار اتهم الزهري بالكذب و علينا أن نطلع على هذه الأخبار حتى نرى أن النتيجة التي اختلقها غولدتسيهر بعيدة جدا عن الأصل و الأساس ، و هي عبارة عن افتراء و فرية .

فقد أورد خبرا عن اليعقوبي (ت ٢٩٢ هـ) قال فيه إنه لما كان الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان حاكما على الشام بنى عبدالله بن الزبير على الحكم واستولى على منطقة الحجاز بما فيها مكة فأصبح هذا خطرا على من يرغب الحج من السوريين بل خطرا على عبدالملك بن مروان نفسه . كما يزعم غولدتسيهر لأن الحجاج السوريين ربما يضطرون هناك إلى بيعة عبدالله بن الزبير و بالتالي فقد يكون مستقبل الحكم

275

الأموي عرضة للخطر - و من هذا المنطلق بنى عبدالملك قبة الصخرة في القدس لغرض منع السوريين من الذهاب إلى الحجاز فطلب من الزهري أن يضع حديثا في فضيلة مسجد بيت المقدس و أن الزيارة إلى هذا المسجد تعادل زيارة الحرم المكي و بناء على هذا الطلب و لخدمة آمال السوريين وضع الزهري هذا الحديث : " لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي و مسجد بيت المقدس " (١٤) .

و بعد أن عرضنا دعوى غولدتسيهر نرجع إلى تاريخ اليعقوبي لنحقق هذا الخبر فنتعجب مرة أخرى حيث لا نجد في الخبر " أن الخليفة عبدالملك قد أمر الزهري بوضع الحديث" و أن هذه العبارة غير موجودة في الخبر بل يذكر فيه أن عبدالملك بعد ما منع ذهاب الشعب إلى مكة المكرمة قال لهم : " هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله قال : لا تشد الرحال ..... " (١٥) و معنى هذا إن غولدتسيهر حرف هذا الخبر كما حرف الخبر الذي نقله عن الطبري و قام بادعاء غريب و عجيب حيث اتهم الزهري بالكذب و ليس لديه دليل على ذلك .

و هناك نقطة مهمة يجب الوقوف عليها في هذا الموضوع ألا و هي خبر اليعقوبي المزعوم بأن قبة الصخرة التي بالقدس بنيت لتكون محل حج بدلا من الكعبة المشرفة و هذا الخبر لم يعثر عليه في كتب التاريخ الأخرى و أن غولدتسيهر أيضا لم يأت بدليل غير خبر اليعقوبي و من المعروف أن اليعقوبي كان شيعيا و لا يخفى علينا الخصومة القائمة بين الأمويين و بين الشيعة .

و لهذا يجب علينا أن ننظر إلى خبر اليعقوبي بحذر و احتياط حيث يتضمن تهمة ضد الخليفة الأموي و ليس من السهل قبول خبر اقامة و تأسيس بناء للحج غير الكعبة

١٤- ترجمة برشر ، ص ٤٤ .

١٥- تاريخ اليعقوبي ، ٢٦١/٢ .

ليلفت أنظار الناس إليه على يد خليفة قد اشتهر قبل خلافته بالزهد و التقوى .(١٦)

١٦ـ قال J. Welhausen فلهاوسن في هذا الموضوع : " لتقوية نفوذ السياسة العربية حاول الأمويون نقل مركز الثقل الديني إلى هناك و ذلك بسبب الإستيلاء على مكة مدة عشر سنوات من قبل ابن الزبير و صعوبة وصول السوريين إليها .إلا لما كانوا مسلمين في بيعة حكامهم . استفاد عبدالملك من هذا الوضع في قضية منع عيصه من الحج إلى مكة منعا باتا تقريبا و أوصى بالحج إلى القدس ، عوضا عن مكة . أما أوتيكوس Eutychius فيعرض الموضوع بهذا الشكل : و الشيء القطعي و المجزوم به في هذا الموضوع هو جهد عبد الملك لرفع مكانة القدس ليكون محلا للعبادة " . أنظر الى "دولة العرب و سقوطها" لمؤلفه فلهاوس ـ ترجمه إلى اللغة التركية الأستاذ الدكتور فكرت ايشلطان ، من منشورات كلية الإلهيات ـ أنقرة ١٩٦٣م ، ص ، ١٠٠ .

في الواقع أن المعلومات التي نقلها فلهاوسن من أوتيكوس عبارة عن اقتباس اليعقوبي و تبعه غولدتسيهر ، ومع ذلك فلهاوسن فقد أتى برأي يخالف فيه غولدتسيهر و أوتيكوس ، حيث يقول " الشيء القطعي في هذا الموضوع هو جهد عبد الملك لرفع مكانة القدس محلا للعبادة " وهناك فرق شاسع بين اهتمام عبد الملك بالقدس و جعله مكانا مقدسا وبناء القبة عليه و بين جعله كعبة للمسلمين و محلا للحج و الضغط على المسلمين لتحقيق هذا الغرض " . ولو سلمنا جدلا بأن القبة بنيت من قبل عبد الملك فان سبب ذلك يعود إلى قدسية مكانة المسجد الأقصى عند المسلمين . وهذا الحديث الذي رواه الزهري يدل على هذه الحقيقة .

لأن هذا الفعل مخالف لأوامر القرآن البينة و لا يمكن وصف فاعله إلاّ بالكفر ، و عدم ذكر هذه الحادثة المهمة في أيّ مرجع غير اليعقوبي يدل على عدم صحتها .

و هناك نقطة مهمة أيضا فيهي الشبهات الواردة حول بناء قبة الصخرة ، وذلك أنها بنيت من قبل عبد الملك ، في الواقع أن المراجع الإسلامية ذكرت بأن الذي بناها ابنه الوليد .(١٧)

و كما عرفنا من الخبر الوارد عن الطبري أن عهد الوليد كان عهد إعمار المباني و القصور و لهذا كان حديث أهل هذا الزمان يدور حول الحركة المعمارية ، وأما عهد أخيه سليمان قد اشتهر بالزواج و أخذ الجاريات و كان حديث الناس يدور حولها . وأما في عهد عمر بن عبدالعزيز فقد زاد اهتمام الناس بالقرآن و بعلومه و حفظه ، وكان سؤال الناس بعضهم بعضا عن القرآن و علومه .(١٨)

وهذا الخبر أيضا يؤيد القول بأنه قبة الصخرة قد بنيت في عهد الوليد حيث تطورت الأعمال المعمارية في عهده . و مع ذلك فان الدميري عندما يكرر نفس الأخبار في كتاب حياة الحيوان الكبرى مدعيا بأن فيها اختلافا و يقول : " بنيت القبة من قبل عبدالملك و يعيد إدعاء اليعقوبي المذكور في أن قضية منع الحج سببا لانشاء القبة ، و من ينتبه إلى عبارته يحكم عليها أنها منقولة عن اليعقوبي بنفس الألفاظ.(١٩)

١٧ـ أنظر : البداية و النهاية لابن كثير ١٩٥/٩ ، و الكمال لابن الأثير ١٣٧/٤ .

١٨ـ أنظر: تاريخ الطبري ٢٦٦/٥ـ٢٦٧ .

١٩ـ أنظر : تاريخ اليعقوبي ٢٦١/٢ ، و كتاب الحيوان للدميري ٥٩/١ .

و سواء بنيت القبة في عهد عبدالملك أو في عهد الوليد أو في أية حالة أخرى فان مما لا شك فيه أن دعوى اليعقوبي بأنها انشئت محلا للحج ، انتقلت من قبل بعض المستشرقين كدليل قيم استدلوا به في هجماتهم على الإسلام (٢٠) . و منهم غولدتسيهر الذي حاول التشكيك و إثارة الإشكال في محل الحج مستدلا بحبر اليعقوبي في هذا الموضوع. هذا ولم يتحرج غولدتسيهر أن يستدل بحديث الزهري المتعلق بمسجد القدس لدعم ادعائه و من ثم فقد أظهر بادعائه و بأسلوبه المحطط في التحريف و التعريب أن الزهري قد وضع الحديث بأمر الخليفة الأموي عبدالملك .

— و لما ادعى أو زعم غولدتسيهر بأن الحديث موضوع من قبل الزهري لم يبال و لم يهتم بروايات الحديث في الصحيحين . وهذا الحديث قد رواه مسلم في صحيحه عن ثلاثة طرق ، فروايه البخاري إحدى هذه الطرق ، و أولها : رواية الزهري عن أبي هريرة ، و ثانيها : روايه نافع عن أبي سعيد الخدري ، و ثالثها : رواية سليمان الأغبر

٢٠- فيما سبق قد بينا رأي أوتيكس نقلا عن فلهاوسن ، أنظر إلى حاشية برقم ١٦ . وإن كاتب مادة قبة الصخرة في دائرة المعارف الاسلامية J. Walker فولكر يكرر أيضا هذا الادعاء : " ... قرر عبدالملك أن يصرف الحجاج عن مكة ويجذبهم إلى القدس خوفا من تعبد الفلسطينيين أن يرجعوا من مكة وهم عصاة . فأرسل الأوامر وأظهر نيته ، وحصل على القوة و على من يعينه و يؤيده أخذ يطبق غايته في تحسين و تجميل القدس ، وقال لأتباعه:(من كتاب Vacue, J , le temple de Jerusalem في ص ٧٥) :
" فلتكن هذه الصخرة كعبتكم " (تاريخ اليعقوبي ٢٦١/٢) . أنظر : دائرة المعارف الإسلامية ٩٤٥/١ و كما ترى فمرجع الادعاء هنا اليعقوبي أيضا .

260

عن أبي هريرة أيضا (٢١) . يعني أن هذا الحديث رواه صحابيان عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم رواه عنهما ثلاثة من التابعين (الزهري - و قتاده - و سليمان) .

٢١- أنظر : صحيح مسلم برقم الحديث ٤٦١٥، ٤٦١١، ٤٦١٢ . على ادعاء عوانة بشير أن الخليفة عبد الملك منع السوريين عن الحج بعد فتنة عبد الله بن الزبير . فبناء على ذلك استمر هذا المنع عن الحج مدة حكم ابن الزبير للحجاز ، و معنى ذلك أن طريق الحج بقي مسدودا الى أن غلب جيش عبد الملك تحت قيادة الحجاج . و من المعلوم أن فتح هذا الطريق للسفر جاء بعد مقتل ابن الزبير في سنة ٧٣هـ . و لهذا يلزم أن يقع اتصال الخليفة المذكور بالزهري في وقت كانت فيه طريق الحج مغلقة وذكر ابن كثير خبرا عن ابن عساكر عن الزهري قال : " أصاب أهل المدينة جهد فارتحلت إلى دمشق و كان عندي عيال كثيرة ، فجئت جامعها فجلست في أعظم حلقة ، فإذا برجل قد خرج من عند أمير المؤمنين عبد الملك فقال : إنه قد نزل بأمير المؤمنين مسألة - وكان قد سمع من سعيد بن المسيب فيها شيئا و قد غذ عنه أمهات الأولاد يرويه عن عمر بن الخطاب - فأخذني و أدخلني على عبد الملك فسألني من أنت ؟ فانتسبت له ، وذكرت له حاجتي و عيالي ، فسألني هل تحفظ القرآن ؟ قلت : نعم و الفرائض و السنن ، فسألني عن ذلك كله فأجبته ، فقضى ديني وأمر لي بجائزة " (البداية و النهاية ٩/٣٤٠ - ٣٤١). و لم يذكر ابن كثير تاريخ لقاء الزهري مع الخليفة عبد الملك بن مروان ، ولكن الذي يظهر من الخبر أن هذا كان أول اجتماع له إليه . وقد ذكر الذهبي خبرا يحل هذه المشكلة قال فيه : " قال سعيد بن عبد العزيز : أدى هشام عن الزهري سبعة آلاف دينار دينا و كان يؤدب ولده و يجالسه قلت وفد في حدود سنة ثمانين على الخليفة عبد الملك فأعجب بعلمه و وصله وقضى دينه . قال هشام بن عمار : أنا الوليد بن مسلم عن سعيد أن هشام بن عبد الملك سأل الزهري أن يملي على بعض ولده شيئا فأملى عليه أربعمائة حديثا . و خرج الزهري فقال : أين أنتم يا أصحاب الحديث ، فحدثهم بتلك الأربعمائة ثم لقي هشاما بعد شهر أو نحوه فقال للزهري : إن ذلك الكتاب ضاع ، فدعا بكاتب فأملاها عليه ، ثم قابل بالكتاب الأول فما غادر حرفا واحدا . " (تذكرة الحفاظ للذهبي ١/١٠٩ - ١١٠) .

كما يبدو أن غولدتسيهر لم يأت بدليل لكي يثبت أن هذا الحديث من وضع الزهري. و كذلك لم يستطع أن يذكر أي خبر عن أئمة الحديث في نقدهم الزهري و جرحه . و مع هذا لم يجنب نفسه عن تحريف الأخبار و تبديل معانيها بمعاني أخرى تناقض أصلها لكي يثبت للقراء أنه رجل ذو استعداد في وضع الحديث. فمن هذه الأخبار قول الزهري بالدا في كتابه الذي نقلته المصادر المختلفة عن الزهري فهو : « أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء »(٢٢). و كان الزهري يصرح و يقصد بقوله هذا أن الأمراء أكرهوه على كتابة الحديث. فأحد غولدتسيهر هذا القول فزعم أنه كان رجلا ليناً و سهلاً في معاملاته مع الحكام و في التمشي مع متطلباتهم و مداراتهم ومن هذا المنطلق و بهذه الدعوى حكم غولدتسيهر على الزهري بأنه أجاب على طلبات و أمنيات الحكام فوضع الحديث حسب رغباتهم .

... يفهم من ذلك أن لقاء الزهري مع الخليفة عبد الملك قد حدث بعد مقتل ابن الزبير و فتح طريق الحج . و من العبث أن يزعم زاعم أن الخليفة طلب من الزهري أن يضع الحديث المذكور بعد فتح الطريق و من هذه الناحية يظهر بطلان زعم غولدتسيهر و مخالفته للحقيقة فهو يستهدف من خلالها تحقيق غرضه المخفي في نفسه كما عرفنا و أشرنا إليه سابقاً .

٢٢ـ أنظر : طبقات ابن سعد ١٣٥/٢ ، تاريخ الإسلام للذهبي ١٤٥/٥ و فيه :« ..... و قال ابن عيينة قال الزهري : كنا نكره الكتاب حتى أكرهنا عليه السلطان فكرهنا أن نمنعه الناس »

و لكن هذا القول الذى تمسك به غولدتسيهر ليس له أىّ صلة في وضع الحديث من أجل الأمراء . ولو غولدتسيهر أتعب نفسه في البحث عن سبب ورود هذا الحديث ما وصف الزهري بأنه رجل مستعد لوضع الحديث للأمراء . و أما سبب الورود الذى لم يعتبره غولدتسيهر أو ما أراد أحده بعين الإعتبار فهو كما يلي : " أن هشام بن عبدالملك سأل الزهري أن يملي على بعض ولده شيئا فدعا بكاتب فأملى عليه أربعمائة حديث ، ثم إن هشام قال له : إن ذلك الكتاب قد ضاع ، فدعا الكاتب فأملاها عليه ثم قابله هشام بالكتاب الأول فما غادر حرفا " (٢٣) . وفي رواية أخرى : " ... سمعت ابن شهاب يقول : لقيني سالم كاتب هشام ، فقال لي : إن أمير المؤمنين يأمرك أن تكتب لولده حديثك ، قلت له وسألتني عن حديثين أتبع أحدهما الآخر ما قدرت و لكن ابعث إلي كاتبا أو كاتبين فانه كل يوم إلاّ و يأتيني قوم يسألوني عما لم أسأل عنه بالأمس ، فبعث إلى كاتبين اختلفنا إلى سنة ، قال : ثم لقيني فقال : يا أبابكر ما أرانا إلاّ قد انتقضنا بك ، قلت : كلا إنما كنت في عزاز من الأرض فالآن هبطت بطون الأودية . " (٢٤)

كما يشاهد في هذه الحادثة و قيل فيها بهذه المناسبة أنه لا يوجد أي دليل و لا معنى يؤدى إلى الحكم على الزهري أنه وضع الحديث بأمر الأمراء . و لكن غولدتسيهر لم يجد أى بأس في اتهام المحدثين بالكذب و في تحريفه الأخبار الصحيحة لأنه كان يهدف إلى تحقيق غرضه المنشود ألا وهو الحطّ من مكانة الحديث النبوي الشريف . ومع ذلك فإن تحريفاته يفهمها كل منصف مطلع على هذه المسائل .

٢٣- أنظر : تذكرة الحفاظ للذهبي ، ١١٠/١ ، و تهذيب التهذيب لابن حجر ، ٤٤٩/٩ .

٢٤- تاريخ الإسلام للذهبي ، ١٤٣/٥ . وذكر ابن كثير خبرا عن الخليفة الذى أكره الزهري على كتابة الحديث . وهذا الخبر يفسر لنا سبب قول الزهري المذكور . و يؤيد الأخبار الأخرى التى سبق ذكرها . و الخبر هو : " قال أبو مليح : كان هشام هو الذى أكره الزهري على كتابة الحديث ... " (البداية والنهاية ، ٣٤٥/٩) .

و سنحاول الآن أن نعرض موقفا عاديا و عجيبا آخر لغولدتسيهر بعد أن رأينا موقفه من الزهري و كيف أراد التقليل من شأنه و تنزيل مكانته و تحطيم الثقة في حديثه عند المسلمين. فقد حاول تقديم نص معروف بين المحدثين بالكتب فلنستمع إلى هذا الخبر لنرى كيفية استغلال غولدتسيهر . (٢٥)

إن المهدي والد الخليفة هارون الرشيد كان يهوى تربية الحمام وسباقها . وهذه اللعبة لها تاريخ قديم ، وقد اخترع هذه اللعبة قوم " سلم " المعصوب عليهم ، كما ذكره غولدتسيهر. ولكن الشريعة الإسلامية حرمتها و كان الخليفة يجاهر من افترافه هذا المحرم باهتمامه بها . لأن المهدي كان محبا لهذه اللعبة من ناحية ، وكان لا يريد أن يخالف الشريعة من ناحية أخرى ، ففي حينه ظهر رجل عابد زاهد اسمه غياث بن ابراهيم النخعي و أراد أن يزيل هم الخليفة فروى حديثا نصه : " لا سَبَقَ الا في خف أو حافر أو جناح " .

لفظة " أو جناح " هي من إضافة غياث بن ابراهيم النخعي ليجعل اللعبة حلالا و يزيل هم الخليفة موهما إياه أن هذا قد روي عن النبي عليه الصلاة و السلام . و الحقيقة أن هذا الحديث قد روي في السنن الأربعة ومسند الإمام أحمد دون لفظة " أو جناح " .

و هكذا ينقل غولدتسيهر هذه الحادثة فيدعي : أن الخليفة لما أحس بالحيلة أمر بقتل جميع الحمائم التي تسببت في تحريف الحديث . و استنتج من هذه الواقعة أنه بامكان رجل عادي له حظ من العلوم الدينية أن يتصرف في الأحاديث كيفما يريد . و أن العلماء قد سلكوا مثل هذا المسلك والمنهج بقصد إيجاد و إظهار الإنسجام و التطابق بين النظرية الدينية و بين الجوانب العملية للحياة . (٢٦)

٢٥- ترجمة برشر ، ص ٨٢ .

٢٦- ترجمة برشر ، ص ٨٣ .

و هكذا تظهر تعصبه و عقليته و تفكيره غولدتسيهر خلية و اضحة و يتبين أسلوبه الماكر باسم العلم !

ما نظر كيف جرد الأخبار لكي يتهم الزهري بوضع الحديث و هو إمام جليل قد اشتهر بصدقه في رواية الحديث ، ثم تتبع أخيرا من تقديم معلومات عن عياش بن ابراهيم النخعي الذي وضع الحديث لرفع مكانته عند السلطان .

فقدم هذا الرجل كصاحب علم و ذي مكانة في البلاد ، و من ناحية أخرى ادعى أن عالما عاديا كهذا بالقصر يقدر أن يتصرف في الأحاديث . وحاول غولدتسيهر من خلال هذا أن يثبت في الأذهان زورا أن عياش النخعي رجل متخصص و ذو مكانة في رواية الحديث بينما عرف بين علماء الجرح و التعديل بخلاف ذلك . وقال فيه يحيى بن معين : « كذاب » ، و قال أحمد بن حنبل : « ترك الناس حديثه » ، و قال البخاري : « تركوه » ، و قال الجوزجاني دون أن يذكر مصدرا : « وضّاع » . (٢٧)

و هكذا يغض غولدتسيهر البصر عن هذه الأخبار و يتجاهلها لأنه يريد أن يشيع بين الناس أنه محدث كبير مع أنه كذاب وبعد أن ذكر الواقعة التي جرت بين المهدي و هذا الشخص أخذ يسعى في تقرير و تثبيت النتيجة و هي أنه كيف وضع الأحاديث مثل هؤلاء الرجال الثقات المعروفين بالمكانة في علم الحديث .

فهذه الأمثلة التي ذكرناها خلال هذه المقالة الموجزة تسلط الضوء بالنقد العلمي على أعمال علمية لمستشرق قد اشتهر في الغرب بدراساته الإسلامية واعترف العالم بقدره و مكانته . و هذه الأمثلة توضح لنا أيضا تفكير وعقلية هذا المستشرق

---

٢٧ ـ ميزان الإعتدال للذهبي ، ٣٢٧/٣ ، وقال السيوطي : قال له المهدي : « أشهد أن قفاك قفا كذاب » ثم طرده وأمر بذبح الحمام (تدريب الراوي ، ص ١٨٧) . و أنظر أيضا : الباعث الحثيث ، ص ٩٤ .

233

و منهجه في هذه الأعمال العلمية . ثم إن هذه الدراسة قد أظهرت لنا نقطة مهمة و نتيجة معروفة و هي أنه يجب علينا أن نستقبل باحتياط و احتراز و تبيين عديد ما توصل إليه أيّ مستشرق بحل و دراسة مسائلنا دراسة علمية . و لا شكّ أنه ينبغي لنا أن نكون على علم و معرفة تامة بدراستهم و بحوثهم و على أن لا ننسى هذه الحقيقة : " إن حل مشكلاتنا و تحليل مسائلنا مسؤوليتنا نحن كما هو فرض علينا " ...